وحدة المصطلح وسياسة التعريب

أ.د. عبد الكريم خليفة (*)

تجمع البحوث التربوية الحديثة، على أن الإنسان يستوعب بلغته الأم وهي اللغة القومية، أضعاف أضعاف ما يستوعبه باللغة الأجنبية، مهما كانت درجة إتقانه لهذه اللغة. وقد دلّت البحوث قديماً وحديثاً، أنه لا توجد لغة عاجزة عن استيعاب المعرفة الإنسانية، ولكن العجز يكمن في أهلها وفي تخلفهم الحضاريّ والفكريّ. وقد اجتازت العربية هذه التجربة في تاريخها القديم، ومنذ نزل بها القرآن الكريم وحياً إلهياً على الرسول الأمين (ρ)، بلسان عربيّ مبين. وازدهرت حضارة عربية إسلامية من الصين شرقاً إلى الأندلس وأطراف أوروبا غرباً. وكانت العربية لغة هذه الحضارة، ولغة العلم الأولى لعدة قرون.

وقد احتل وضع المصطلحات العربية وتلمُّس سبل توحيدها وإشاعتها، مكانة مهمة في بناء حضارة عربية إسلامية أصيلة. وإن علاقة المصطلح، وتعريفه وتحديد مدلوله، علاقة أساسية وحيوية، بجميع العلوم وحقول المعرفة ونمائها وتطورها. وربما كان من أدق التعابير عن هذه العلاقة الحيَّة، عبارة "مفاتيح العلوم " التي اختارها العالم الشهير "الخوارزميّ " (ت: 387 هـــ) عنواناً لمؤلفه[1].

يحدد الخوارزميّ هدفه من تصنيف هذا الكتاب، فيقول في مقدمته: ("يكون جامعاً لمفاتيح العلوم، وأوائل الصناعات، متضمناً ما بين كل طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات، التي خلت منها أو من جلّها الكتب الحاصرة لعلم اللغة"[2]

ويوضح أهمية هذه"المواضعـــات" و"الاصطلاحات "، ويبين أهمية تعريفها وتحديد مفاهيمها، في حقول العلوم، وفي جميع حقول المعارف المتخصصة، وكذلك يؤكد أهمية إشاعة استعمالها بين أهل الصنعة، على حدّ تعبيره، فيقول: "حتّى إنّ اللغويّ المبرِّز في الأدب، إذا تأمَّل كتاباً من الكتب التي صُنِّفَت في أبواب العلوم والحكمة، ولم يكن شدا صدراً من تلك الصناعة، لم يفهم شيئاً منه، وكان كالأميّ الأغتَم، عند نظره فيه ".[3]

فالخوارزميّ يجعل تعريف الاصطلاحات والمواضعات أساساً لفهم هذه العلوم، واستيعابها. وأن معرفة اللغة وحدها، بل والتبريز بها وبآدابها، لا يغني شيئاً. وإن مثل هذا الدارس للعلوم، لهو بمنـــزلة الأمِّي الذي لا يفصح لعجْمة في منطقه. وفي تبيانه لأهمية فهم الاصطلاحات والمواضعات، فقد جمع لهذا الدارس الجاهل

(*) رئيس مجمع اللغة العربية الأردنيّ

بها، صفة الأمية إلى صفة العجمة في منطقه، مهما بلغت درجة إتقانه للغة العربية وآدابها..

ويحدد الخوارزميّ مكانة الاصطلاحات والمواضعات في اللغة. وأن اللغة بحد ذاتها وسيلة للفهم والإفهام ومعرفه الاصطلاحات والمواضعات، وليست غاية بحدِّ ذاتها. فيقول: "وأحوج الناس إلى معرفة هذه الاصطلاحات :الأديب اللطيف الذي تحقق أنّ علم اللغة آلة لدرسه الفضيلة، لا يُنْتفع به بذاته، ما لم يجْعل سبباً إلى تحصيل هذه العلوم الجليلة. ولا تستغني عن علمها طبقات الكتاب، لصدق حاجتهم إلى مطالعة فنون العلوم والآداب". (4)

وبعد أن بين الخوارزميّ منهجه، يشير إلى كيفية استيعاب ما اخترع من الأسامي والألقاب، وما وفد من كلام العجم. فيقول: "ولم أشتغل بالتفْريع المفرط، والاشتقاق البارد، ولا بإيراد الحجج والشواهد، إذ كان أكثر هذه الأوضاع أسامي وألقاباً اخترعت، وألفاظاً من كلام العجم أعربت." (5) ويختم مقدمته بقوله: "وسمّيْت هذا الكتاب "مفاتيح العلوم "، إذ كان مَدْخلاً إليها، ومفتاحاً لأكثرها. فمن قرأه وحفظ ما فيه ونظر في كتب الحكمة هذّها هذّاً، وأحاط بها علْماً، وإنْ لم يكن زاولها، ولا جالس أهلها".(6)

وربما كان من المفيد أن نورد بعض الأمثلة التي أوردها الخوارزميّ يوضح فيها منهجه في وضع الاصطلاحات. ومن هذه الأمثلة: "لفظة "الرَّجْعة"، يقول: "فإنها عند أصحاب اللغة: المرّة الواحدة من الرجوع، لا يكادون يعرفون غيرها وهي عند الفقهاء: الرجوع في الطلاق الذي ليس ببائن. وعند المتكلمين: ما يزعمه بعض الشيعة، من رجوع الإمام بعد موته أو غيبته. وعند الكُتّاب: حساب يرفعه المعطي في العسكر لطمع واحد.(7) وعند المنجمين: سير الكواكب من الخمسة المتحيِّرة، على خلاف نضد البروج.. (8).

ومما تجدر ملاحظته أن الخوارزميّ استعمل لفظة "اصطلاحات " ولفظة "مواضعات"، للدلالة على معان محددة. فلفظة "اصطلاحات" جمع "اصطلاح " وقد استعمله بمعنى "المصطلح" الذي أصبح شائع الاستعمال في عصرنا الحاضر. يُلاحظ أنه خص بالاستعمال لفظة "المواضعات " في حديثه عن "مواضعات" متكلمي الإسلام"(9) وفي حديثه عن أصناف النصارى ومواضعاتهم"(10) وكذلك عن "أصناف اليهود ومواضعاتهم"(11) و "مواضعات أسماء الذكور والدفاتر والأعمال المستعملة في الدواوين"(12) و "مواضعات كُتّاب ديوان الخراج"(13) و "مواضعات كُتّاب ديوان الخزن"(14) ومواضعات كتاب ديوان الجيش"(15)، و"مواضعات كُتّاب الرسائل"(16) وكذلك في حديثه عن "اشتقاقات هذه الألقاب والمواضعات" (17).

وتلاحظ أن الخوارزميّ قد استعمل لفظة "المواضعات " في بعض الموضوعات من المقالة الأولى. وفي بعضها الآخر تتعدد تسمياته، وخصوصاً فيما يتعلق بالأسماء مثل "أسامي أرباب الملل والنحل المختلفة" و "عبدة الأصنام من العرب وذكر أسمائهم" ويتجنب ذكر "المواضعات " بصورة كلية في "الفقه " و "النحو" و "الشعر والعروض " و"الأخبار". و إن كان في باب "الكتابة"، بصورة خاصة، يستعمل إلى جانب لفظة المواضعات، عبارة "ألفاظ تستعمل في كذا... " وفي باب "الأخبار" يقتصر على ذكر الأسماء

واستعمال عبارتي: "ألفاظ يكثر جريها" و "ألفاظ يكثر ذكرها"... أما في المقالة الثانية التي تشتمل على أبواب الفلسفة والمنطق و الطب و الارثماطيقي و "الهندسة" و"علم النجوم" و "الموسيقى" و "الحيل " و"الكيمياء"، فإنه يستعمل عبارة "ألفاظ يكثر ذكرها" مرة واحدة فقط وذلك في باب الفلسفة [18] وكذلك قوله في باب "الحيل" الألفاظ التي يستعملها أهل الحيل في جرِّ الأثقال بالقوة اليسيرة"[19]. وما عدا ذلك فإنه يقتصر على إيراد ألفاظ الدلالات العلمية. وهو في جميع الأحوال يحرص على ذكر حدودها وتعريفاتها، بإيجاز ووضوح ودقة، وقد يأتي بأمثلة للشرح والتوضيح.

وإذا تأملنا قول الخوارزميّ السابق في تحديد أهدافه "متضمناً ما بين كل طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات التي خلت منها أو من جُلِّها، الكتب الحاصرة لعلم اللغة"، يتضح لنا أنه يميز بدقة بين لفظة "المواضعات " ولفظة "الاصطلاحات " وأنه إذا استثنينا الألفاظ التي ذكرها تحت عنوان لفظة "المواضعات " وعبارات" ألفاظ يكثر ذكرها" و "ألفاظ يكثر جريها" و"ألفاظ تستعمل في... " " فإنه يتَعَيَّنُ اعتبار ما عداها "اصطلاحات ".

ومما له دلالة مهمة في هذا السياق أن لفظة "الاصطلاحات" لم ترد في معجم ابن منظور، "لسان العرب". وهذا يعني أنها لم ترد في المعاجم الستة السابقة التي أفرغها ابن منظور في معجمه. وأما لفظة المواضعة، فقد وردت بمعنى "متاركة البيع " و "المناظرة في الأمر" و"المراهنة".[20]

وقد تنبه الخوارزميّ منذ وقت مبكر، في القرن الرابع الهجريّ إلى خلو "الكتب الحاصرة لعلم اللغة أو جُلِّها، من هذه الاصطلاحات والمواضعات العلمية ". وهذا يعني أن وضع "الاصطلاحات والمواضعات العلمية" قد بدأ منذ بداية حركة ترجمة العلوم ونقلها إلى العربية، والتأليف بها، في جميع حقول المعرفة، في القرن الرابع الهجريّ وما سبقه من قرون، لا سيما في القرنين الثاني والثالث الهجريين، بل ومنذ بدأ تعريب دواوين الدولة في النصف الثاني من القرن الأول الهجريّ. فقد أرست سياسة الدولة منذ وقت مبكر في العصر الأمويّ قواعد تعريب الدواوين، وجعلت همّها نقل العلوم والمعارف إلى العربية، ووضع اصطلاحاتها ومواضعاتها.

ومما يلقي ضوءاً على قضية وضع الاصطلاحات، وأنها رهينة الشيوع والتواتر، نورد هذا النص. يقول الخوارزميّ في الفصل الثاني من الباب الثاني في المنطق، وتحت عنوان: "قاطيغورياس" الكتاب الأول من كتب أرسطوطاليس في المنطق، يسمى "قاطيغورياس ". وأما "إيساغوجي " فإنه لفورفوريوس، صنَّفه مدخلاً إلى كتب المنطق. "يُثْبِتُ الخوارزميّ الاصطلاح باليونانية معرَّباً ويضع مقابله بالعربية، ويحدِّدُ معناه. وفي شرح مدلوله العلميّ بالعربية، قد يجد الحاجة في بعض العبارات، إلى ذكر ما تُسمَّى به باليونانية، فيقول مثلاً: ومعنى "قاطيغورياس " باليونانية، يقع على المقولات. والمقولات عشر، وتسمَّى: "القاطاغوريات". ويواصل الخوارزميّ تعداد اصطلاحات المقولات العشر بالعربية فيقول:

إحداها- الجوهر: وهو كل ما يقوم بذاته، كالسماء والكواكب والأرض وأجزائها، والماء والنار والهواء، وأصناف النبات والحيوان، وأعضاء كل واحد منها..[21] ويشير الخوارزميّ في هذا الموضع إلى مبدأ مهم في حياة الاصطلاح، ومنه يبين مبدأ الشيوع والتواتر، فيقول: "ويسمّي عبد الله بن المقفّع "الجوهر" عُنياً،[22] وكذلك سمّى عامة المقولات وسائر ما يذكر في فصول هذا الباب (أي باب المنطق)، بأسماء اطّرحها أهل الصناعة، فتركْتُ ذكرها، وبينت ما هو مشهور فيما بينهم"[23]. فقد أخذ الخوارزميّ بمبدأ الشيوع بين أهل الصناعة، وترك ما هو غامض غريب[24]. وعزف عمّا أسماه "الاشتقاق البارد".

كان الخوارزميّ، كما تجمع كثير من المصادر، كاتباً باحثاً، وعالماً مشاركاً في علوم كثيرة. لم يذكر الخوارزميّ مصادره في تصنيف كتابه "مفاتيح العلوم "، ولكنه أوضح أن عمله في هذا المؤلّف، كان يقوم على الجمع، وفق مبادئ معينة. يقول: "وقد جمعت في هذا الكتاب، أكثر ما يُحتاج إليه من هذا النوع؛ أي الاصطلاحات والمواضعات، متحرياً للإيجاز والاختصار، ومتوقياً للتطويل والإكثار. وألغيت ذكر المشهور، والمتعارف بين الجمهور، وما هو غامض غريب، لا يكاد يخلو إذا ذكر في الكتب، من شرح طويل، وتفسير كثير...[25]. وفي جميع الأحوال كان مبدأ الشيوع سمة بارزة في منهجه.

وقد يصبح موضوع مصادر الخوارزميّ في جَمْع المصطلحات والمواضعات واضحاً إذا استعرضنا أسماء العلماء الذين عاصرهم، وأولئك أيضاً الذين سبقوه في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وأحصينا مصنفاقم العلمية المشهورة التي وجدت طريقها من المشرق إلى الأندلس والمغرب، وكذلك من الأندلس إلى المشرق. فطريق الحج كانت سابلة، وطريق العلماء ومؤلفاقم كانت لاحبة، لا يعيقهـــا عائق. فحقوق المواطنة كان معترفاً بها في دار الإسلام، على الرغم من وجود الكيانات السياسية المتصارعة في كثير من الأحيان.

ونذكر من هؤلاء العلماء ومصنفاقم في مختلف العلوم والفنون، ابن سينا (ت: 428 هـــ) وكتابه: "القانون في الطب "، والرازي (ت: 340 هـــ) وكتابه الحاوي في الطب، وكذلك كتابه محنة الطبيب وخواص الأشياء، ورسالة في الجدري. وابن الهيثم (ت:430 هـــ) وكتابه: مقالة في الضوء، والبيروني (ت: 440 هـــ) وكتابه: الصيدلة في الطب، وابن جلجل أبو داود سليمان (ت: 372 هـــ) وكتابه: تفسير أسماء الأدوية المفردة، وجابر بن حيان (ت: 210هـــ) ومصنفاته في علم الكيمياء، ومؤلفات الكندي (ت: 252 هـــ) وثابت بن قُرّة (ت: 288 هـــ) والبوزجاني (ت: 388 هـــ) والمجريطي وأبناء موسى بن شاكر الذين نبغوا في الرياضيات، وخاصة في الهندسة والفلك والفلسفة، ولهم كتاب "الحيل ". وكانوا محل رعاية الخليفة المأمون في القرن الثالث الهجريّ. وابن يونس (ت:399 هـــ) في مصنفاته في الهيئة والرياضيات، والبتاني (ت: 317 هـ) ومؤلفاته في الفلك، وحساب المثلثات، و الجبر، و الهندسة، و الجغرافيا. والزّهراوي (ت 403هـــ) ثالث نوابغ الأطباء العرب (الرازي وابن سينا و الزهراوي).. والفارابي (ت: 339) في كتابه: إحياء العلوم، وغيرهم من مشاهير علماء القرون: الخامس والسادس والسابع الهجرية. مثل: البغدادي (ت: 619 هـــ) الذي شغل بدراسة علم الطب، وابن البيطار (ت: 646 هـــ)، إمام النباتيين وعلماء الأعشاب. وابن النفيس (ت: 696 هـــ)، مكتشف "الدورة الدموية الصغرى" و القزويني (ت: 682 هـــ)...

إن هذا العرض الشامل للعلماء وذكر بعض مصنفاهم في تراثنا العلميّ، يظهر لنا أن قضية "الاصطلاحات "، أو كما شاع في استعمالنا في الوقت الحاضر، "قضية المصطلحات"، لم تكن بهذا التعقيد الذي تطرحه الندوات والمؤتمرات في العصر الحديث. لا أحد ينكر أن سيلاً عارماً من المصطلحات العلمية تتدفق في العصر الحاضر، ولا مجال للمقارنة النوعية والكمية بينها وبين المصطلحات العلمية التراثية. ولكن المبدأ العلميّ في النقل إلى العربية والتعريب يبقى ثابتاً. فطريقة حنين بن إسحاق في الترجمة والنقل، التي سادت بين علماء المسلمين في كتبهم ومصنفاهم، ما زالت تشكل مبدءاً أساسياً في عملية الترجمة والتعريب في الوقت الحاضر.. وهذه الطريقة تقوم على فهم معنى الجملة في الكتاب الأصليّ، والتعبير عنها بلغة عربية دقيقة وواضحة. وعندما تجابهه كلمات أعجمية (يونانية) لم يستطع نقلها إلى العربية، يعتمد على شرح المعنى بأسلوب فصيح واضح وسهل، مع المحافظة على لفظ المصطلح العلميّ، ومحاولة صقل الكلمة اليونانية وإضفاء رونق العربية عليها.

ولم نَرَ أو نسمع أصواتاً ارتفعت بوجوب وضع "المصطلحات العلمية" و "الاتفاق على منهجية موحَّدة"، قبل أن تبدأ عملية التعريب أو حركة الترجمة والنقل والتأليف... لقد انطلقت عملية تعريب دواوين الدولة بإقرار سياسيّ، لا لبس فيه، من أعلى سلطة في الدولة. وانطلقت حركة ترجمة العلوم، ونقلها إلى العربية، برعاية سياسية تتمثل بالخلفاء ورؤساء السلطة التنفيذية والقضائية... ولم تكن منهجية وضع المصطلحات وتوحيد استعمالها وإشاعتها، لتشكل عائقاً أو عقبة كأداء. فقد انطلق مشاهير العلماء التراثيين، في عملية النقل والترجمة والتأليف، بلغة عربية فصيحة وواضحة. فكان العالم يخرج من بغداد، ويجلسُ للتدريس في حلقات العلم بدمشق والقاهرة و القيروان وقرطبة وإشبيلية وبجاية وتلمسان وفاس، ولا يجد صعوبة في الفهم والإفهام عند تلاميذه، في حلقات العلم، وبين نظرائه من العلماء. فهذا الفارابيّ محمد بن محمد بن طرخان، التركيّ المولد. ولد في فاراب (على نهر جيحون)، وانتقل إلى بغداد، فنشأ فيها، وألف بها أكثر كتبه. ورحل إلى مصر والشام، وتوفيّ بدمشق. كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره.. وعُرِف بالمعلم الثاني وكان يجلس للتدريس والمذاكرة والمناظرة أينما حلّ. وفي جميع الأحوال كانت مصنفات العلماء جميعهم، في مختلف فروع العلم، في الطب والصيدلة والكيمياء، وعلوم الحيوان والنبات و المعادن والأرض، وعلوم الصوت والحرارة والضوء و المغناطيس والرياضيات والميكانيك (علم الحيل) والفلك والموسيقى.. أقول كانت مصنفاهم، تجد طريقها إلى معاهد العلم وحلقاته في المشرق والمغرب والأندلس... وبعد ذلك وجدت طريقها إلى معاهد العلم ومؤسساته في أوروبا في القرون الوسطى وفي عصر التنوير... وكانت الاجتهادات في وضع "الاصطلاحات " تتفاوت، ولكنها تخضع في جميع الأحوال لقانون البقاء للأصلح، وهو ما يترجم هنا بالشيوع والتواتر في الاستعمال. وقد أشار الخوارزميّ إلى ذلك بصريح العبارة كما مرَّ معنا سابقاً. وإنه لمن البديهي أن الشعور بالحاجة إلى "تصنيف كتاب... يكون جامعاً لمفاتيح العلوم، وأوائل الصناعات، متضمناً ما بين كل طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات... على حدّ تعبير الخوارزميّ، قد جاء في أواخر القرن الرابع الهجريّ، تالياً لظهور المصنفات العلمية المترجمة والمؤلفة... ونضوج العلم وازدهاره في مراكز الإشعاع العلميّ والثقافيّ من بغداد وأصفهان شرقاً إلى قرطبة واشبيلية غرباً... وكان لخصائص

العربية في نحوها وصرفها وقابليتها اللامحدودة للتوليد والاشتقاق، القدرة على استيعاب حصيلة ما وصل إليه الإنسان في حقول المعرفة، والانطلاق من دور الاستيعاب والنقل، إلى دور التأليف والإبداع والاكتشافات العلمية، التي كان لها دور كبير، في النهضة الأوروبية في القرنين السادس والسابع عشر للميلاد. وكان للعلماء العرب والمسلمين دور كبير في وضع الأسس العلمية والعملية للرواد الأوائل في اكتشاف قارات العالم الجديد.

وبعد سبات عميق امتد عدة قرون، عادت العربية من جديد تتلمّس طريقاً للحياة العلمية والثقافية والفكرية، تنفض ما ران عليها من غبار الجهل والفقر والتخلف. ولا شك أن حديثنا عن اللغة هو حديث عن الأمة، وأن حديثنا عن تخلف اللغة هو حديث عن تخلف الأمة...

بدأت حركة التعريب ونقل مختلف العلوم الحديثة إلى العربية، منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر في أرض الكنانة بمصر، استجابة لسياسة واضحة، اتخذتها الدولة الحديثة إذ ذاك، في جعل العربية لغة التعليم، في المؤسسات العلمية والتقنية المصرية. وقد جابهت المترجمين صعوبات في نقل العلم إلى العربية، وإيجاد المصطلحات والمقابلات العربية، كما جابهت الروّاد الأوائل في مسيرة تاريخ العلوم بالعربية. ولا بد لنا أن نلاحظ هنا، أن المنهج في النقل ووضع المصطلحات (الاصطلاحات) العلمية، قد اتخذ المسيرة الأولى إياها، من حيث المبدأ. فهي المسيرة التي تمليها قوانين الحياة الشاملة ونواميس الطبيعة. والحياة الشاملة هنا تعني حياة العمران البشريّ في جميع جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية والفكرية، وحياة اللغة التي بدونها لا يكون عمران بشريّ.

انطلقت هذه الحركة العلمية العربية الحديثة، في أوائل القرن التاسع عشر، على غرار ما بدأت به الأصول. فاتجهت إلى نقل العلوم من منابعها الأصلية. فاستعملت العربية في التعبير عن الفكر العلميّ الحديث، وحَرَصت على توضيح المعاني التي تحملها الألفاظ والمصطلحات، بلغة عربية سليمة، وبشتى الوسائل التي تتيحها خصائص العربية في الاشتقاق والتوليد والمجاز والنقل والنحت والتعريب، بمعناه اللغويّ، وذلك بأخذ اللفظة الأعجمية كما هي أو إضفاء رونق العربية عليها، وإدخالها في نظام الجملة العربية. فجميع هذه الروافد تمدُّ العربية بالثراء والحياة المتجددة. ولا يَقبل العقل والمنطق أن تحرم العربية من روافدها، و أن تقتصر لسببٍ أو لآخر على بعضٍ منها.. " هذا مع العلم أن نقل المصطلح الأعجميّ إلى العربية قد يكون بترجمة المعنى أيضاً.

ولم يزعم أحد في القديم أو في الحديث، أن هذه الألفاظ الاصطلاحية، لا يجوز غيرها، بل إن باب الاجتهاد مفتوح، ويترك للاستعمال والشيوع وللأجيال القادمة دورها في حياة المصطلح وتطويره أو تستبدل به آخر. ويقودنا التجوال مع مسيرة التعريب، وموقع المصطلح منها، إلى أوائل القرن العشرين. وما كان منها من تجربة التعريب الشامل، وجعل العربية لغة التدريس في معهد الطب العربيّ، ومعهد الحقوق، في القطر السوريّ الشقيق منذ العقد الثاني من القرن العشرين. وبعد الحرب العالمية الثانية، واستقلال القطر السوريّ الشقيق، تكاملت الكليات، وتعدّدت الجامعات، وأصبحت العربية في جميع الأحوال والظروف لغة التدريس الجامعيّ والبحث العلميّ. فوضعت الكتب، ترجمة وتأليفاً باللغة العربية. وعرض الدارسون والمؤلفون والمترجمون إلى قضية المصطلح " بالعربية. وكان استعمال المصطلح ونشره و إشاعته المِعْيار الأساسيّ لبقائه وذيوعه في

القطر العربيّ الواحد، واجتيازه أيضاً إلى أقطار العروبة. فتحيا مصطلحات وتموت أخرى. وفي هذه المسيرة الحيَّة، يرسي المصطلح العربيّ قواعد أساسية لوحدته، وبالتالي وحدة اللغة العلمية العربية بين المتخصصين. وهؤلاء هم الذين سمَّاهم الخوارزميّ في مفاتيح العلوم، أهل الصنعة.

ونحن في هذا العصر، عصر المعلوماتية، نجابه تدفق المصطلحات في جميع حقول المعرفة، بأعداد كبيرة في كل يوم، إلى جانب الأعداد الهائلة من الرموز العلمية والمختصرات. وإذا كانت ثورة المعلومات قد فرضت نفسها على اللغة العربية، فإن ثورة أخرى مماثلة في مجال التقنيات والأجهزة الحاسوبية والإنترنت، تفرض على مراكز البحث العلميّ، في الجامعات والمؤسسات العربية، وعلى العلماء العرب، من لغويين ومعلوماتيين وحاسوبيين، بناء أجهزة حاسوبية وتقنية، في حقول المعلوماتية وشبكاتها الحديثة المتطورة، تُوائم خصائص اللغة العربية في صرفها ونحوها وكتابتها. وربما لا نعدو الصواب، إذا قلنا إن ما جرى من جهودٍ مشكورة في هذا المجال، هي جهود متواضعة، أمام ضخامة الهدف. فالأجهزة الحاسوبية التي تغرق أسواقنا وشبكات الاتصالات (الإنترنت)، قد بنيت، من حيث الأساس، لخدمة اللغة الإنجليزية بخاصة، واللغات الأجنبية بعامة، لا سيما التي تستعمل الحروف اللاتينية. ونحن نعلم أنّ للغات خصائص وأن للغة العربية خصائص ذاتية تغاير خصائص اللغة الإنجليزية في نحوها وصرفها وكتابتها، لا سيما فيما يتعلق ببناء الجملة والشكل والترقيم. وأن حقائق العلم، ومنطقه، تقتضي بأن تُبْنى أجهزة حاسوبية ومعلوماتية وغيرها من التقنيات اللغوية الحديثة، بناءً علمياً أصيلاً، منطلقاً من خصائص العربية وثوابتها في النظم والصرف. فالجهود المتفرقة التي بذلت حتى الآن في هذا المجال، لم تتجاوز محاولة تطويع هذه الأجهزة والتقنيات التي بنيت في الأصل، لخدمة لغات أجنبية معينة، لا سيما اللغة الإنجليزية، أقول: لتطويع هذه الأجهزة، لخدمة العربية في العصر الحاضر. ومهما بلغت هذه الجهود في تطويع الأجهزة، وتحوير البرمجيات لخدمة اللغة العربية، فإنها ستبقى قاصرة عن ملء فجوات كثيرة في تقنياتها لإيجاد الحلول السليمة لقضايا العربية، في نحوها وصرفها وكتابتها.

ونحن إذا وضعنا جانباً، قضية البناء الأصيل، لأجهزة الحاسوب والمعلوماتية والتقنيات الحديثة وفق خصائص اللغة العربية وسماتها الذاتية، فإن سياسة التعريب الشامل، وفرض العربية لغة للتدريس والبحث العلميّ، يشكل المحور الأساسيّ والقضية الجوهرية في عملية التعريب، في جميع الأقطار العربية في العصر الحاضر. وإن الدول العربية مدعوة في جميع أقطارها لاتخاذ قرارها السياسيّ في أعلى المؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية، لجعل العربية لغة العلم والتدريس الجامعيّ، ولغة جميع دوائر السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وذلك في جميع مجالات الحياة العامة. وأن الواجب ليقضي تهيئة جميع الوسائل العلمية والإمكانات، لتحقيق هذا الهدف السامي. فلا إبداع يتوقع في الوطن العربيّ إلا من خلال العربية، ولا نهضة علمية واقتصادية وثقافية وفكرية أصيلة إلا من خلال العربية التي تعطي لأمتنا هويتها، في العمق التاريخيّ وعلى الامتداد الجغرافيّ. وهي في الوقت ذاته لغة العروبة والإسلام.

إن الواجب الوطنيّ والقوميّ، وما تمليه قوانين الحياة ونواميس الطبيعة، في تقدم الأمم وازدهار حضارتها، ليوجب علينا، تلمّس الواقع، ومعرفة الظروف والأحوال والقضايا التي تجابهها العربية، في مواجهة تحديات القرن الواحد

والعشرين، عصر ثورة المعلوماتية، والحوسبة، وعصر تَغَوّل العَولمة، بمفهومها الحديث في الهيمنة الاقتصادية والسياسية والثقافية، وإقصاء اللغات القومية لاسيما اللغة العربية، عن سيادتها في أوطانها، وعن مجالاتها الحيوية والطبيعية في التدريس الجامعيّ والبحث العلميّ وإحلال اللغة الإنجليزية محلها.

إن حجم المشكلات التي تواجهها العربية في هذا القرن كبيرة ومتعددة. ولكننا أيضا نقول: إن ما تمدنا به، التقنيات الحديثة وأجهزة الحاسوب المتطورة، وشبكات المعلومات والإنترنت، واستخدام "العقول الإلكترونية " في مجالات الترجمة، تجعل حلّ جميع هذه المشكلات ممكناً وميسوراً، ولا أقول سهلاً، إذا توافرت الإرادة الحازمة لخدمة العربية، لغة الهوية والانتماء العقائديّ لأمتنا، لغة العلم والتعليم والحياة الشاملة. وإن حديثنا في هذا البحث يتناول جانباً من جوانب قضايا التعريب. وهو موقع المصطلح وتوحيده في عملية التعريب الشامل... إن أمامي الآن مسارد بأسماء المعجمات والمصنفات والمؤلفات العلمية العربية، وما أسميه "أدبيات التعريب " منذ النصف الثاني من القرن العشرين وحتى الآن. فقد تناولت المصطلحات العلمية التي أنجزتها مؤتمرات التعريب على مدى أكثر من أربعين عاماً، وتدارست قواعد الترجمة، والنقل، ومنهجيات وضع المصطلحات، والرموز العلمية، والمختصرات، وآراء مؤيدي التعريب وآراء معارضيه أو مرجئية!. ونحن الآن أمام المؤتمر العاشر للتعريب الذي يعقد بدمشق العروبة، لدراسة معجمات للمصطلحات العلمية في عدد من الحقول العلمية. وقد بذل مكتب تنسيق التعريب جهوداً خيرة، لإعداد هذه المشروعات. فكلف علماء متخصصين لوضعها، وآخرين لدراستها، وتدقيقها، وإبداء الملاحظات. وهي الآن تعرض على هذا المؤتمر العام، ليضيف ما يضيفه، ويعدّل ما يراه مناسباً، خلال عددٍ من الجلسات، قد لا تتعدى عدد أصابع اليد الواحدة، وذلك لإضفاء الشرعية العلمية والمعنوية على هذا العمل العلميّ الكبير..

وإن المحور الأساس لمؤتمرات التعريب على مدى العقود الأربعة الماضية، كان وما زال وضع المقابلات العربية، للمصطلحات العلمية من مصادرها الأجنبية، باللغتين الإنجليزية والفرنسية. وكذلك تقديم بحوث حول منهجية وضع المصطلحات واستعمالها وإشاعتها وتطور اللغة العربية العلمية والحضارية...

وكان لمكتب تنسيق التعريب الذي انبثقت نواته الأولى عن مؤتمر التعريب الأول الذي عُقد بالرباط سنة 1961م، أقول: كان له دور تاريخيّ، في إثراء الخزانة العربية بالمعجمات المتخصصة، في مختلف حقول العلوم الحديثة وعلى الرغم من الإمكانات المادية المحدودة، فقد استطاع أن يحافظ على بقاء شعلة التعريب مضيئة في الأجواء السياسية والعلمية العربية المتردية في مختلف الأقطار. وكانت وسيلته الأولى وما زالت مؤتمرات التعريب، التي دأب على عقدها بصورة دورية، في الأقطار العربية التي تستضيفها...

وربما يحق لنا أن نطلق على هذه العقود الأربعة الأخيرة مرحلة مؤتمرات التعريب. ونحن نتساءل الآن: ماذا بعد هذه المرحلة؟ وكيف يمكن التعامل مع هذا الكم الهائل من المصطلحات العلمية التي تتدفق بأعداد كثيرة في كل يوم؟ وهل بقي الأسلوب الذي درجت عليه مؤتمرات التعريب، منذ حوالي أربعين عاماً، صالحاً في عصر ثورة المعلومات وأجهزة الحاسوب والإنترنت ووسائل الاتصالات

الحديثة؟ أليس من الواجب وضع آلية حديثة تقوم، بصورة منتظمة، بنقل المصطلحات العلمية وتعريفاتها من مصدرها العالميّ المتجدد، والمتسارع النمو بصورة مذهلة، إلى بنك للمصطلحات باللغة العربية؟ أليس من الواجب دعم مكتب تنسيق التعريب مادياً وعلمياً وتزويده بالخبراء والباحثين والفنيين والأجهزة الحاسوبية المتطورة؟ أليس من الضروريّ دراسة إمكانية تطوير بنك للمصطلحات باللغة العربية في مكتب تنسيق التعريب ليصبح بنك المصطلحات العربية الأساسيّ؟

وقد يقودنا الاجتهاد، في تطوير آلية العمل، أن نقترح تأليف هيئات علمية، يتراوح عدد كل هيئة بين ثمانية وعشرة من العلماء المتخصصين في كل حقلٍ من حقول العلم والمعرفة، لوضع المقابلات العربية للمصطلحات العلمية والفنية والتقنية، وتعريفاتها، على أن يتم الاتصال والحوار، فيما بينهم، من مواقعهم في جامعاتهم أو في مؤسساتهم العلمية في مختلف الأقطار، وذلك باستعمال وسائل الاتصالات الحديثة (e-mail) والإنترنت... وأن تعرض أعمالهم على لجنة لغوية وعلمية متخصصة، تجتمع مرة كل ستة أشهر مثلاً، في مقر اتحاد المجامع اللغوية العربية، بمشاركة مكتب تنسيق التعريب، أو في أيّ مكان آخر، لدراسة ملحوظاتهم ومناقشة ما اختلف عليه. وأن تدخل بعد ذلك في بنك المصطلحات العربي... وأن تجد طريقها إلى الاستعمال في الجامعات والمؤسسات العربية.

أليس من الضروريّ توزيع المسؤوليات في إنجاز المشروعات اللغوية الأساسية، وتنظيم المهام العلمية واللغوية على المجامع اللغوية العربية، والجامعات العربية في الوطن العربيّ؟ ألا يمكن أن يقوم كل مجمع من المجامع الأعضاء في اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية بدراسة قضية معينة من قضايا العربية، في إطار خطة علمية يضعها الاتحاد؟ ألم يعد من الضرورات اللغوية والعلمية والقومية، وضع المعجم التاريخيّ للغة العربية؟ وأين موقع حوسبة النصوص العربية منذ أقدم النصوص التي وصلت إلينا حتى الوقت الحاضر؟ وأين موقع المعجمات العربية المتخصصة؟ أليست الحاجة ماسة إلى إنشاء مؤسسة عربية قادرة علمياً ومادياً على نقل الفكر العالميّ إلى العربية، وترجمة المصادر والمعاجم العلمية والبحوث التي تنشر في أهم الدوريات العلمية العالمية إلى اللغة العربية؟ أليس الأخذ بالمنهــاج العلميّ وأساليب البحث الحديثة، وترجمة الفكر العلميّ الحديث ونقل المعرفة العلمية والتقنية، الأساس الوحيد لإنشاء حضارة علمية عربية، تواكب العصر، وتمد بجذورها إلى تراثنا العلميّ والثقافيّ والفكريّ؟

ألم نستوعب نتائج مسيرة التعريب على مدى الأربعين سنةً الماضية؟ أليس من الواضح أن تعريب المصطلحات، ووضع المقابلات العربية في معجمات تخلو من تحديد المفاهيم وشرح معانيها بمعزل عن النص، لا تحقق الهدف المنشود؟ أليست النصوص هي المجال الوحيد الذي ينمو فيه المصطلح ويتطور، و الاستعمال وحده هو الذي يمد المصطلح بالحياة؟.

وما دور الباحث العلميّ في تطور المصطلحات وتغير دلالاتها؟ أليس هو وحده القادر على فهم هذا التطور وصنعه؟ وما دور العلماء المتخصصين؟ وما موقع اللغويين في عملية وضع المصطلحات وتطويرها ؟ أليس توحيد المصطلحات العلمية هدفاً سامياً، لإيجاد لغة علمية عربية واحدة؟ أليس الاشتقاق في اللغة العربية ونظام الجذور

والأصول المشتركة للألفاظ العربية تخفف كثيراً من حجم مشكلة اختلاف المصطلحات. أليس من البدهيات أن يكون لقرارات المجامع اللغوية العلمية العربية، صفة الإلزام لاستعمال المصطلحات التي تقرّها، في الكتب المدرسية وفي الكتب الجامعية، والكتب الأخرى المؤلفة والمصنفة والمترجمة... وفي الدوريات العلمية؟ أليس من الضروريّ الحرص على أن يبقى باب الاجتهاد مفتوحاً أمام الباحثين العلميين؟

وهل يحق لنا أن نزعم أن قضية وضع المصطلحات وتوحيدها تستعصي على الحل خلال حوالي نصف قرن ؟ ألم تعقد ندوات، لتوحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية واختيارها، وإقرار مبادئها الأساسية؟ فقد عقدت مثلاً ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية، بدعوة من مكتب تنسيق التعريب بالرباط من 18-1981/2/20م... وبعد حوالي اثنتي عشرة سنة، عقدت ندوة تطوير منهجية وضع المصطلح العربيّ، وبحث سبل نشر المصطلح الموحَّد وإشاعته، في رحاب مجمع اللغة العربية الأردنيّ بعمّان من19-1414/3/22هـ الموافق 6-1993/9/9م، وذلك بدعوة من مكتب تنسيق التعريب، استكمالاً للندوة الأولى. ولا يتسع المقام لذكر جميع الندوات والاجتماعات الأخرى وقراراتها.

فهذه مجموعة من التساؤلات والملاحظات، استوحيتها من المسيرة المتعثرة لحركة التعريب في الوطن العربيّ، وعلى امتداد العقود الأربعة الماضية. وربما تساعد الإجابة عنها على وضع سياسة لغوية عربية شاملة وملزمة، تجعل اللغة العربية الفصيحة لغة التعليم في جميع مراحله الأساسية والثانوية والجامعية وتكون لغة البحث العلميّ والتقنيات الحديثة، ولغة الإعلام المقروء والمسموع والمنطوق، وتجد طريقها إلى ألفاظ الحياة العامة، وأصحاب المهن، وإلى جميع شرائح المجتمع في بيئاته المختلفة.

إن السياسة اللغوية العربية، مدعوة للعناية باللغة العربية، ووضع برامج محدّدة للدراسات اللغوية، وتطوير الدراسات الصوتية العربية، في ضوء ما وصل إليه البحث العلميّ اللغويّ في العالم المتقدم. وإن الواجب القوميّ والعلميّ ليدعو إلى تقديم اللغة العربية للمتعلمين والدارسين من أبنائها، ومن غير الناطقين بها، بثوبها الجميل ووجهها المشرق، وبالأساليب التربوية والوسائل التقنية الحديثة. وإن واجب هذه السياسة اللغوية العربية، زرع محبة العربية واحترامها في نفوس أبنائها، وفي جميع الأوساط الرسمية الداخلية والدولية.

الهوامش

(1) انظر : الخوارزمي، محمد بن يوسف (المتوفى/387 هـ)، مفاتيح العلوم، القاهرة
(2) المصدر نفسه، ص 7.
(3) مفاتيح العلوم، ص 7.
(4) مفاتيح العلوم، ص8
(5) مفاتيح العلوم، ص 9.
(6) المصدر نفسه.
(7) الطّمع: أرزاق الجند، وأطماع الجند: أرزاقهم. وقيل: أوقات قبضها، واحدها طَمَع، ابن منظور، لسان العرب، مادة طمع.
(8) مفاتيح العلوم، ص 8.
(9) مفاتيح العلوم، ص 28.
(10) مفاتيح العلوم، ص 35.
(11) مفاتيح العلوم، ص 36.
(12) مفاتيح العلوم، ص 52.
(13) مفاتيح العلوم، ص 55.
(14) مفاتيح العلوم، ص 58.
(15) مفاتيح العلوم، ص 59.
(16) مفاتيح العلوم، ص 64.
(17) مفاتيح العلوم، ص 80.
(18) مفاتيح العلوم، ص 111.
(19) مفاتيح العلوم، ص 187.
(20) انظر ابن منظور: وضع.
(21) مفاتيح العلوم، ص 118.
(22) عَنِيَ يَعْنى عَنِيّاً، بكسر النون من عَنِي. ومن أمثالهم: عَنِيَّه تشفي الجرب. يضرب مثلاً للرجل إذا كان جيِّد الرأي... انظر: ابن منظور، لسان العرب، عَنا.
(23) مفاتيح العلوم، ص 117 .
(24) مفاتيح العلوم، ص 8.
(25) المصدر نفسه.